

رمزي منير بعلبكي*

هُويّة الفُصحى بحث في التّصنيف والخصائص

تقدم هذه الدراسة حفراً لغويّاً وتاريخيّاً مقارناً في أصول اللغة العربيّة بوصفها بنتاً للساميّة. وتتفحص أهم النظريات التي تناولت تشكّلها التاريخيّ واللغويّ، وتساهم في تحديد موقعها التصنيفيّ في مجموعتها، وموقعها التاريخيّ في التطوّر اللغويّ للأصول التي انبثقت منها. وتبيّن الدراسة المعالم الكبرى التي طبعت العربيّة بطابع انتباهها الساميّ، على المستوى الصوتيّ والصرفيّ والتركيبيّ والدلاليّ. كما تبيّن أيضاً الظواهر التي انفردت بها عمّا في سائر الساميات أو توسّعت بها عنها، حتّى أضحت سمات مميّزة لها، وأكسبتها تفرداً وهويّتها الخاصة.

ينصرف مصطلح "العربيّة" في أذهان كثير من أبنائها إلى "الفصحى" تحديداً، وهم يعدّونها النموذج الأعلى الذي أفضى "تحيّفه" بسبب من انتشار اللحن بين العامّة إلى نشوء العاميّات المعاصرة. وليس بمستغرب أن يكون هذا الاعتقاد هو الأغلب عند أبناء اللغة من غير أهل الاختصاص، إلا أنّ البحث اللغويّ الجادّ يقتضي - أوّل ما يقتضي - ضبط المصطلحات والمفاهيم، باعتباره شرطاً لازماً لسلامة المقاربة والتحليل. ولما كان تحديد هويّة الفصحى من مستلزمات النظر في بُعد آخر من أبعاد الهويّة، وهو موضوع المؤتمر العلميّ الذي يقدّم فيه هذا البحث، يحسّن البدء بالتفرقة بين مصطلحين اثنين، هما "العربيّة" و"الفصحى"، ينطويان على ثلاثة مفاهيم مختلفة. أمّا "العربيّة" فكثيراً ما يستخدمها الدارسون من دون أن يفرّقوا بين مفهومين اثنين يَحتملها المصطلح، أوّلها يُراد به اللغة العربيّة على إطلاقها، ولا سيّما من حيث مقابلتها بلغات أخرى مثل الفارسيّة، أو التركيّة، أو الفرنسيّة... إلخ، وثانيهما يُراد به العربيّة الفصحى بمختلف مراحلها، ولا يُستثنى من ذلك العاميّات. وإيضاحاً للفرق بين المفهومين، نستأنس بالفرق بين المصطلحين Arabiyya و Arabic عند الدارسين الغربيّين، إذ يُطابق الأوّل المفهوم العامّ، أي اللّغة العربيّة عند إطلاقها، وينحصر الثاني في المفهوم الأضيق الذي يُقصد به الفصحى، إمّا وحدها وإمّا مع العاميّات. وإذ إنّ التفرقة بين المفهومين قد لا تكون

ميسورةً في الكلام العربي (إلا أن يُقال "اللغة العربية" تعبيراً عن المفهوم الأول - وهو أمرٌ مجافٍ لسلامة الأسلوب - ويُقتصر في الثاني على "العربية" مع ما قد يرافق ذلك من لبس)، من المستحسن دوماً أن يحدّد المراد بـ"العربية" حينما استُخدم المصطلح منعاً لأيّ لبس. وأمّا المصطلح الآخر - أي "الفصحى" - فينصرف تحديداً إلى مرحلة من تاريخ العربية تتمثّل بالشعر الجاهليّ والقرآن الكريم وبعض النقوش الإسلامية، وبالتراث الأدبيّ الضخم الذي وصلنا ابتداءً من القرن الثاني للهجرة، والذي يُعدّ استخداماً الحاضرُ للغة خارج إطار العاميّات امتداداً له، وإن فارق الاستخدام الحاليّ للفصحى استخدامهما في عصور سابقة من حيث المفردات والأساليب تحديداً، مع تناسب كبير بين التّمتين من حيث القواعد الأساسية للصّرف والتّحو.

وتأسيساً على ما تقدّم سنستخدم في هذا البحث مصطلح "العربية" للدلالة على اللّغة العربية على إطلاقها (أي بما يوازي في الإنكليزية Arabic، وليس Arabiyya)، في حين نُشير بـ"الفصحى" إلى مرحلة محدّدة من مراحل العربية، هي تلك التي وصفناها أعلاه، إلا حيث نصّصنا على أنّ المراد بـ"العربية" هو الفصحى تحديداً، فلا التباس في الاستعمال. وعليه، يقع البحث بطبيعته في قسمين، يتّصل أوّلهما اتّصلاً وثيقاً بـ"العربية"، ويدور الثاني على "الفصحى". ولما كان الغرض هو أن نُحدّد هويّة العربية، ولا سيّما فصاحتها، كان عماد القسم الأول البحث في تصنيفها ضمن المجموعة السامية، وعماد القسم الثاني الخصائص التي تُميّز الفصحى عن سائر اللّغات في تلك المجموعة. وبهذه المقاربة يتّضح مرادنا من البحث عمّا نسميه هويّة العربية، ذلك أنّه يدور على قطبين: أوّلهما تصنيفيّ يحدّد موقع العربية في المنظومة السامية انطلاقاً من العلاقة القائمة بين مكونات تلك المنظومة؛ وأمّا الثاني فينظر في ما انفردت به الفصحى، أو كادت، من خصائص لم ترثها من المخزون الساميّ المشترك الذي يعبر عنه باللّغة الافتراضية المعروفة بالسامية الأمّ (Proto-Semitic) وفيها تميّزت فيه عن أخواتها بمدى استخدامها له أو تعميمها أو ضبطها.

أولاً: العربية

لا بدّ أوّلاً من الإشارة إلى أنّ الوثائق التاريخية التي وصلتنا تتضمّن ذكرًا لجماعة يُطلق عليها اسم يتّصل بالعرب، وأنّ ذلك سابقٌ على ذكر اللسان العربيّ. وقد ورد اسم هذه الجماعة - أوّل ما ورد - في نقش مساريّ يعود إلى عام ٨٥٣ قبل الميلاد، في عهد الملك الأشوريّ شلمنصّر الثالث الذي يذكر عدوّاً له اسمه Gindibu، من أرض Arbi أو Arbāya^(١). ثمّ ترد الإشارة إلى جماعة تُدعى العرب Arab في نقوش تعود إلى زمن تغلاتبلاسر الثالث المتوفّي في عام ٧٢٧ ق. م، كما ترد إشارات مشابهة في نقوش الأخمينيين، ومنهم داريوس الأول، المتوفّي في عام ٤٨٦ ق. م. وأحشورش الأول، المتوفّي في عام ٤٦٥ ق. م. وأرتخششتا الأول، المتوفّي في عام ٤٢٤ ق. م.^(٢) وأمّا التوراة فقد ذُكر فيها العرب في مواضع متفرّقة من سفر إرميا^(٣)، بوصفهم من سكّان البوادي.

١ انظر:

Kess Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1997), p.23.

2 Jan Retsö, "Das Arabische der Vorislamischen Zeit bei Klassischen und Orientalischen Autoren: Neue Beiträge zur Semitistik," Erstes Arbeitstreffen der Arbeitsgemeinschaft Semitistik in der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft vom 11. bis zum 13. September 2000 and der Friedrich-Schiller-Universität Jena, (ed.) Norbert Nebes, (Wiesbaden: O. Harrassowitz, 2002), pp.139-146.

& Jan Retsö, *The Arabs in Antiquity: Their history from the Assyrians to the Umayyads* (London: Routledge Curzon, 2003), pp. 235 - 250.

٣ سفر إرميا، الإصحاح ٢٥، الآيات ١٨-٢٦؛ وانظر:

Retsö, *The Arabs in Antiquity* ..., Op.Cit., pp. 212-228.

وإلى البادية^(٤) ارتبطت تسمية العرب بذكر الجبال؛ من ذلك مثلاً أنّ Gindibu، المشار إليه آنفاً، كان على رأس جيش يضم ألف رجل. ولهذا دلالة تاريخية بالغة، فالجبال دُجنت على ما يبدو في جنوب شبه الجزيرة العربية، ثم عُرفت في شياها نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد بواسطة القوافل التجارية، فلعل الفترة اللاحقة التي تشكّل فيها نمط الحياة البدوية القائمة على الجبال هي الزمن الذي بدأت فيه معالم العربية في الظهور، مكتسبة خصائص أخذت تُميّزها عن سائر الساميات؛ وغني عن البيان أنّ القطع بهذا الأمر ضرب من المحال. ومع أنّ الإشارة إلى الجماعة المسماة عربياً (بألفاظ من مثل Arabu أو Aribi أو arábioi) لا تعني بالضرورة أنّ لسانها كان عربياً، إذ قد تكون إشارة إلى جماعة إثنية أو عسكرية، لا نستطيع أن نُسقط من الاحتمال أنّ المراد بهذه التسميات هم قومٌ مميّز لسانهم عن ألسنة سواهم من الأقوام، فوصف بأنه "عربي". ومهما يكن من أمر، فإنّ الإشارات الأولى إلى اللسان العربيّ إنّما ترد في المصادر الإغريقية واللاتينية في عبارات مثل arabikē Glōssa و arabicū diálectos و arabicus lingua و arabicus sermo^(٥). وإلى هذا يتضمّن التلمود نحو ثلاثين مفردة ينصّ على اتّصالها بالعرب أو الجزيرة العربية^(٦). وبعد ذلك تتوالى الإشارات إلى "العربية" على نحو موصول، ولعلّ أهمّها ما في القرآن الكريم، باعتباره النصّ الدينيّ الوحيد الذي يُعلن جهاراً ارتباطه الوثيق بلغة محدّدة، ذلك أنّ اللفظ "عربي" ورد فيه إحدى عشرة مرّة، كلها من دون استثناء صفة للكتاب نفسه، أو للسان الذي نزل به.

انطلاقاً من هذه اللّوحة التاريخية السريعة عن أولى الإشارات إلى العربية وإلى القوم الذين يوحي اسمهم بأنهم ينطقون بها، نحاول أن نتلمّس العلاقة بين العربية وأخواتها، ذلك أنّ ذكرها وردّ غالباً في نقوش تلك الأخوات، فكانت في ذلك دليلاً ضمنيّاً على لسان مخصوص لقوم يعينهم في إطار الحضارة السامية بمعناها الأوسع. ولقد حاول علماء الساميات المقارنة منذ أمد بعيد أن يصنّفوا تلك اللغات تصنيفاً مستنداً إلى خصائصها ومواضع انتشارها، فنشأ من ذلك التصنيف التقليديّ الذي سنبينه أدناه. إلا أنّ هذا التصنيف، كما يرى بعض الدارسين، لم يعد مقبولاً بعد أن تطوّرت معرفتنا باللغات السامية في العقود الأخيرة، وبخاصّة بعد اكتشاف لغات أو لهجات سامية لم تكن معروفة من قبل، كذلك المستخدمة في إبلا وماري وتل بيدر وكش، ومع تطوّر فهمنا للنصوص الأوغاريتية، وظهور نصوص جديدة مكتوبة بما اصطلح على تسميته "العربية القديمة" (انظر أدناه). ولئن كان اكتشاف تلك اللغات أو اللهجات باعثاً على اتّساع معرفتنا بالساميات عموماً، لقد كان مثار خلافٍ شديد من حيث التصنيف. فالإبلاوية التي اكتشفت في السبعينيات من القرن الماضي، مثلاً، تُعدّ أكبر مدوّنة معروفة في تاريخ العالم خلال العصر البرونزي المبكر، أي بين الألفين الثالث والثاني ق.م، إلا أنّ تصنيفها مختلف فيه، فمن العلماء من جعلها من اللغات السامية الغربية، ومنهم من جعلها من اللغات الشرقية، أي الأكديّة، في حين يرى آخرون أنّها تقع في فئة مستقلة متفرّعة من السامية الأم مباشرة^(٧). وما يعيننا من كلّ هذا أنّ موقع العربية بين الساميات كان الأكثر تأثراً بالنظرية الجديدة لتصنيف هذه اللغات، على ما

٤. وما قد يشير إلى الرّبط الموغل في القدم بين العربية والصحراء، إحدى النظريات التي تفسّر كلمة "عرب" بإرجاعها إلى اللفظة السومرية gab-bīr، ومعناها الصحراء؛ انظر:

Versteegh, *The Arabic Language...*, Op. Cit., p.24.

5. Retsö, *The Arabs in Antiquity ...*, Op.Cit., p.591.

& Retsö, "Arab", In: *Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics*, Ed. by Kees Versteegh (Leiden: E.J. Brill, 2006), Vol. 1, p. 131.

٦. للتوسّع في هذا الموضوع، انظر:

Retsö, "Das Arabische der Vorislamischen Zeit bei Klassischen und Orientalischen Autoren...", Op. Cit.

والمصادر المذكورة فيه.

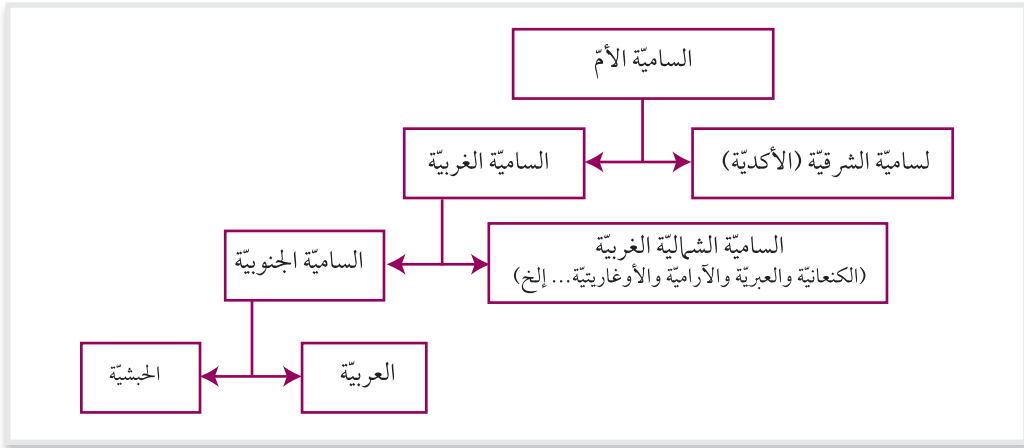
٧. انظر: رمزي منير بعلبيكي، "التأثيل المعجمي وموقع العربية بين الساميات"، مجلّة المعجميّة، العدد ٢٣ (٢٠٠٣)، ص ٢٠، الهامش ٢.

& Edward Lipiński, *Semitic languages: Outline of a Comparative Grammar* (Leuven: Peeters, 2001), pp. 51-52.

سنتين في عرضٍ سريعٍ لكلتا النظريتين، التقليديّة والجديدة.

يرجع النموذج التقليديّ إلى عهد Wright (١٨٩٠) و Bergsträsser (١٩٢٣)، و Brockelmann (١٩٢٦) و Gray (١٩٣٤)، وإليه يستند أيضاً تصنيف Moscati وزملائه (١٩٦٩)^(٨)، وعمادُه قسمة الساميات إلى فرعين أساسيين: الساميّة الشرقيّة، أي الأكديّة و متفرّعاتها، والساميّة الغربيّة، ولها فرعان: الساميّة الشماليّة الغربيّة، أي الكنعانيّة والعبريّة والمؤابيّة والفينقيّة والآراميّة... إلخ، والساميّة الجنوبيّة، وتشمل العربيّة والحبشيّة. والمراد بالعربيّة وفق هذا التصنيف العربيّة الشماليّة التي تشمل الفصحى، والعربيّة الجنوبيّة بلهجاتها القديمة (أي السبئيّة والمعينيّة والقبتانيّة والحضرميّة)، والحديثه (مثل المهريّة والجباليّة والسقطريّة والحرسوسيّة). وبعبارةٍ أخرى، تجمع العربيّة في هذا التصنيف عربيّة الشمال وعربيّة الجنوب، وتتصل اتّصلاً وثيقاً بالحبشيّة؛ وأمّا جامعها باللغات الشماليّة الغربيّة فأصل مشترك هو الساميّة الغربيّة، على ما يُظهره الرسم التالي:

وللنظريّة التقليديّة هذه مسوِّغات لغوية كثيرة، ولا يزال يرى بعض الدارسين أنّ تصنيف العربيّة ضمن الساميّة الجنوبيّة أمرٌ سليم^(٩). ومع ذلك راج عند بعضهم، منذ أواسط السبعينيّات، تصنيفٌ جديد يقوم في المقام الأوّل على الخصائص الصرفيّة التي استحدثتها بعض اللغات الساميّة دون سواها، ويوافق التصنيف التقليديّ في القسمة الكبرى، أي الساميّة الشرقيّة والساميّة الغربيّة، ويخالفه بعد ذلك، إذ يفرّع الساميّة الغربيّة فرعين، هما الساميّة الوسطى والساميّة الجنوبيّة. ويُظهر الرّسم التالي معالم هذا التّصنيف:



إنّ أكثر ما يتّصل ببحثنا من حيث الفرق بين النموذجين المذكورين أعلاه موقع العربيّة؛ فالملاحظ أنّ التّموذج الثاني أخرجها من الساميّة الجنوبيّة، وألحقها بفرع ذي تسمية جديدة هو الساميّة الوسطى Central Semitic،

8 Moscati et al., *An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages: Phonology and Morphology*, 2nd Ed. (Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1969), pp. 3-15.

٩ انظر مثلاً:

Joshua Blau, "Hebrew and North West Semitic: Reflections on the Classification of the Semitic Languages", *Hebrew Annual Review*, No. 2 (1978), pp. 21-44.

& Werner Diem, "Die Genealogische Stellung des Arabischen in den Semitischen Sprachen: Ein ungelöstes Problem der Semitistik". *Studien aus Arabistik und Semitistik: Anton Spitaler zum Siebzigsten Geburtstag*, (ed.) Werner Diem, 65-85. Wiesbaden: O. Harrassowitz, 1980.

& Andrzej Zaborski, "The Position of Arabic within the Semitic Dialect Continuum", In: Kinga Dévényi and T. Iványi (Ed.), *Proceedings of the Colloquium on Arabic Grammar* (Budapest: Eötvös Loránd University, 1991), pp. 365-375.

& Robert R. Ratcliffe, "Defining Morphological Isoglosses: The 'Broken' Plural and Semitic Sub Classification", *Journal of Near Eastern Studies*, No. 57 (1998), pp. 81-123.

فصارت أقرب إلى اللغات الشمالية الغربية^(١٠). إلا أنها بانفصالها عن السامية الجنوبية انفصلت عن اللهجات العربية الجنوبية، أي إن التباعد بين عربية الشمال وعربية الجنوب أضحى أكبر من التباعد بين عربية الشمال والعربية، أو الآرامية مثلاً.

لا ريب أن تصنيف الساميات مسألة بالغة التعقيد، ولعلّ أشدّ جزئياتها تعقيداً الجزء الذي يعيننا مباشرةً، أعني عربية الشمال. وكنت قد عرضت في بحث سابق للحجج اللغوية، التي يُستدلّ بها على تصنيف العربية ضمن المجموعة الجنوبية وفقاً للنموذج التقليدي، وتلك التي حدّت ببعض الدارسين إلى جعلها فرعاً عن السامية الوسطى، ينتظمها والسامية الشمالية الغربية^(١١). وفي ما يلي ذكرٌ سريع لأهمّ تلك الحجج، نَحْلُص منها بعد ذلك إلى الاستنتاج الذي نرجح صحّته.

أما النظرية الجديدة فأقوى برهانها على انتساب العربية إلى السامية الجنوبية، على ما يُظهره الرسم الأول أعلاه مدارّه الأمور التالية:

أ - أنّ العربية، بفرعها الشمالي والجنوبي، والحبشية تشتركان في التوسّع في استخدام جموع التكسير، خلافاً للغات السامية الأخرى التي تحتفظ منه ببقايا قد ترجع إلى مرحلة السامية الأم^(١٢)؛

ب - أنّ العربية والحبشية تتميزان بأنّ الصيغة الأساسية للفعل الماضي المبني للمعلوم فيهما هي وزان فَعَلَ Fa'ala، وفيه فتحة بين أصله الثاني والثالث، أي بين عين الفعل ولامه، خلافاً لسائر الساميات^(١٣).

ج - أنّهما تنفردان بصيغتي "فاعَل" و"تفاعَل" المعروفتين عند المستشرقين بالتصريفين الثالث والسادس اللذين يمثلها علماء الساميات بـ"قاتَل" و"تقاتَل"، ولذا فالأغلب أنّ الصيغتين مبتكرتان في هاتين اللغتين^(١٤)، الأمر الذي يُعدّ دليلاً قوياً على الصلة الوثيقة بين اللغتين ضمن المجموعة السامية.

د - أنّ الصامت /p*/ في السامية الأمّ قد تحوّل في العربية الشمالية والجنوبية، دون سائر الساميات، إلى

١٠ أول من أطلق مصطلح السامية الوسطى هو R. Hetzron، في بحثين منشورين عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٦. وللتوسّع في المراد بالسامية الوسطى، وفي العلاقة بين مكوناتها انظر:

Alice Faber, "Genetic Subgroupings of the Semitic Languages", Ph.D. diss., University of Texas at Austin, 1980.
& Gideon Goldenberg, "The Semitic Languages of Ethiopia and their Classification", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, No. 40 (1977), pp. 461-507.

& Jonathan Rodgers, "The Subgrouping of the South Semitic Languages", In: A.S. Kaye (ed.), *Semitic Studies in Honor of Wolf Leslau*, Vol. 2 (Wiesbaden: Harrassowitz, 1991), pp. 1323-1336.

& Rainer M. Voigt, "The Classification of Central Semitic", *Journal of Semitic Studies*, No. 32 (1987), pp. 1-21.

& John Huehnergard, "Languages of the Ancient Near East", *The Anchor Bible Dictionary*, New York, Vol. IV (1992), pp. 155-170.

& George E. Mendenhall, "Arabic in Semitic Linguistic History", *Journal of the American Oriental Society*, No. 126 (2006), pp. 17-26.

١١ بعلبكي، "التأثيل المعجمي...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣ - ٣٨.

١٢ قد لا يكون مراد التشابه بين العربية والحبشية في استخدام جموع التكسير اشتراكها في إحداث ظاهرة جديدة تميّزها عن أخواتها، لأنّ المخزون المشترك للساميات، بل للغات السامية - الحامية إجمالاً، ما يعزّز القول إنّ الظاهرة أوسع من العربية والحبشية، وإنّ استخدام هذه الجموع سقط - أو كاد - من سائر تلك اللغات.

١٣ جلي أنّ خلوّ بعض الكتابات السامية من الحركات القصيرة لا يُسغفنا على القطع بطبيعة الصّائت الواقع بين عين الفعل ولامه فيها.

١٤ إلاّ أنّه من المحتمل أن يكون في العربية مقابل لوزان "فاعَل" هو صيغة Pō'ēl، التي يتصرّف منها المضارع المعلوم yeqōtēl، والمجهول yeqōtāl، واسم الفاعل meqōtāl.

/f/ (١٥).

هـ - أنَّ عربيَّة الشَّمال وعربيَّة الجنوب والحبشيَّة تُبقي على الواو /w/ في أوائل الأفعال والأسماء على السواء، في حين تتحوَّل في اللغات الشماليَّة الغربيَّة إلى /y/ (١٦).

أما النظريَّة التي تجعل العربيَّة أقرب إلى اللغات الساميَّة الشماليَّة الغربيَّة منها إلى الفرع الجنوبي، بها في ذلك الرأى القائل بوجود ساميَّة وسطى تُشارك الساميَّة الجنوبيَّة في تفرُّعها عن الساميَّة الغربيَّة وإليها تنتمي العربيَّة والساميَّات الشماليَّة الغربيَّة، فأهم حججها التاليَّة:

أ - أنَّ الساميَّة الوسطى، بها فيها العربيَّة الشماليَّة، أسقطت صيغة aqattal التي تَرَد في الأكديَّة والحبشيَّة والعربيَّة الجنوبيَّة، وأحلَّت محلَّها صيغة yaqtulu للدلالة على الأحداث غير المنقضية، ولعلَّ ذلك حصل بزيادة الصَّائت - u في آخر صيغة المضارع المجزوم yaqtul (١٧)؛

ب - أنَّ استخدام العربيَّة الشماليَّة لصيغة الفعل المبني للمجهول يقربها من اللغات الساميَّة الشماليَّة الغربيَّة، ويفرِّق بينها وبين العربيَّة الجنوبيَّة والحبشيَّة (١٨).

ج - أنَّ حركة حرف المضارعة (وهو ضمير في الأصل) في الساميَّة الوسطى إمَّا فتحة في كلِّ التصاريف، كما في العربيَّة، وإمَّا فتحة تحوَّلت كسرة، كما في العربيَّة والآراميَّة، وهذا مفارقٌ لما في الحبشيَّة والعربيَّة الجنوبيَّة، فضمائر المضارعة فيها هي في الأصل *i-، وإن تكن تحوَّلت إلى صائت شديد القصر في كلِّ ضمائر الحبشيَّة، نحو neqabber وyeqabber (١٩).

د - أنَّ عربيَّة الشَّمال تخالف الحبشيَّة، وعربيَّة الجنوب في ضميريَّ الرفع المتحرِّكين للمتكلم والمخاطب، إذ تستخدم العربيَّة فيهما التاء في نحو "كتبْتُ" و"كتبْت"، وتستخدم فيها الحبشيَّة الكاف في نحو qabarkū وqabarka، علماً بأنَّ اللغات الشماليَّة الغربيَّة توافق العربيَّة في استخدام التاء (٢٠).

١٥ تصحَّ هذه الحجَّة شرط ألا يكون التحوُّل قد جرى في العربيَّة والحبشيَّة على نحو مستقلٍّ في كلِّ، ذلك أنَّ تحوُّل /p/ إلى /f/ يقع لأسباب صوتيَّة مرَّجحة في كثير من اللغات، ومنها اللغات الهنديَّة - الأوروبيَّة.

١٦ انظر:

Anna Gr. Belova, "South Semitic Languages", In: *Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics*, Ed. by Kees Versteegh (Leiden: E.J. Brill, 2009). Vol. IV, pp. 300-315.

١٧ يرَدُّ بعض الباحثين هذه الحجَّة انطلاقاً من ترجيحهم وجود صيغة yaqtulu في النقوش العربيَّة الجنوبيَّة؛ انظر: Zaborski, "The Position of Arabic within the Semitic Dialect Continuum", Op. Cit., p. 367.

١٨ هذه الحجَّة كسابقتها يُوهنها أن غياب الصَّوائت القصيرة في كتابة النقوش العربيَّة الجنوبيَّة لا يبيِّن الجزم بخلوِّ اللهجات العربيَّة الجنوبيَّة من صيغ المجهول خلواً تاماً.

١٩ يُلاحظ أنَّ حركة حرف المضارعة تتفاوت في الساميَّة الشرقيَّة بين الفتحة والكسرة، وأنَّ للمقايسة أثراً بيئياً فيها من حيث تعميم الحركة الواحدة على مختلف الصَّيغ، وهذا الأمران يحولان دون التفرقة الحاسمة التي توحى بها الحجَّة المذكورة أعلاه.

٢٠ حاصل هذا التوزيع عند القائلين بوجود الساميَّة الوسطى أنَّ العربيَّة الشماليَّة أقرب إلى الساميَّات الشماليَّة الغربيَّة منها إلى العربيَّة الجنوبيَّة والحبشيَّة. إلا أنَّ هذا التوزيع يعتره أنَّ بعض اللهجات الآراميَّة يستخدم الكاف لا التاء، انظر:

Goldenberg, "The Semitic Languages of Ethiopia and their Classification", Op. Cit., p. 478.

وأنَّ الكاف ترد في بعض اللهجات اليمنيَّة الحديثة، وقد يكون ذلك دليلاً على تنوُّع ضمن العربيَّة، وليس من أثر العربيَّة الجنوبيَّة في لهجات اليمن الحديثة تلك. أمَّا ما ذكره اللغويون والنُّحاة العرب من ورود الكاف في بعض شعر حُمير العربيَّة (انظر: أبو زيد الأنصاري، النوادر، تحقيق محمد عبد القادر أحمد (بيروت: دار الشروق، ١٩٨١)، ص ٤٣٧، و: الزجاجي، الأملالي، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: المؤسسة العربيَّة الحديثة، ١٣٨٢هـ)، ص ٢٣٦. فالظاهر أنَّه من أثر العربيَّة الجنوبيَّة في كلام أبنائها حين يصطنعون العربيَّة. انظر أيضاً: ابن جني، سرُّ صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي (دمشق: دار القلم، ١٩٨٥)، ١/ ٢٨١، وابن عصفور، الممتع في التصريف، تحقيق =

هـ - أن عربيّة الشمال توافق العربيّة في استخدام $na/nā$ للضمير المتصل بالفعل المضارع المسند إلى المخاطبات والغائبات - نحو "تَقْبُرُن" و"يَقْبُرُن" العربيّتين $tiqbornā$ لكلتا الصيغتين في العربيّة - وتحالف الحبشيّة التي يرد فيها الصّامت الطويل $-ā$ في الصيغتين، نحو $teqabrā$ و $yeqabrā$ ^(٢١).

جليّ مما تقدّم مقدار الصّعوبة الناشئ عن أيّ تصنيف للعربيّة الشماليّة ضمن المجموعة السامية، ولعلّ إجماع الدارسين لا ينعقد إلا على عدم الجمع بينها وبين السامية الشرقية في فرع واحد؛ وهذا طبعاً من المسلمات. إلا أنه من الجائز القول إنّ مجموع المسائل العشر المشار إليها في الحجج التي بيّناها لكلتا النظريّتين: التقليديّة والحديثة تصلح أن تكون خطوطاً مورفيميّة $isomorpha$ ^(٢٢) تُعتمد معياراً للتصنيف. وإنّ أوضح مثال على ذلك التباين بين العربيّة والأكدية في كلّ من المسائل العشر دونها استثناء: فمجموع التكسير تكثّر في العربيّة، ولا أثر لها في الأكدية؛ والصّائت الواقع بين عين الفعل ولامه في صيغة الماضي فتحة في العربيّة، وضمّة في الأغلب في الأكدية (نحو $iškun$ ومعناها وَضَعَ)؛ وصيغتا "فاعل" و"تفاعل" تطردان في العربيّة، ولا تردان في الأكدية؛ وهكذا في سائر المسائل. إلا أنّ الوضع أكثر تعقيداً في الخطوط المورفيميّة التي تتقاطع فيها العربيّة الشماليّة إمّا مع اللغات الشماليّة الغربيّة أو مع العربيّة الجنوبيّة، على ما أوجزنا في ما تقدّم وفي التعليقات التي أوردناها في الهوامش لكلّ من المسائل العشر. وصفوة القول، يتنازع العربيّة الشماليّة نازعان، يُدنيها أولهما إلى اللغات الشماليّة الغربيّة، والثاني إلى العربيّة الجنوبيّة والحبشيّة. ومؤدّى هذا الوضع الإقرار بوجود مُتّصل لهجيّ أو لغويّ $continuum$ تتقاطع فيه العربيّة الشماليّة مع أخواتها الشماليّة الغربيّة في نقاطٍ معيّنة، ومع أخواتها الجنوبيّة في نقاطٍ أخرى^(٢٣). فهويّة الفُصن، وهي إحدى مراحل العربيّة الشماليّة، ترجع إلى موضعها في هذا المتصل، وإلى تقاطع خصائصها مع خصائص اللغات الشماليّة الغربيّة واللغات الجنوبيّة على حدّ سواء. إلا أنّنا بالجملة أميل إلى النظريّة التقليديّة لاعتبار أساسيّ هو أنّها تُظهر العلاقة العضويّة بين عربيّة الشمال وعربيّة الجنوب، وتبقي على منظومة عربيّة تستند، علاوة على الجانب اللغويّ، إلى اعتبارات جغرافيّة متينة. ونحن إن كنّا لا نوافق Voigt في تصنيفه، خلافاً لمعظم الدارسين، العربيّة الجنوبيّة القديمة مع السامية الوسطى، وإبقائه العربيّة الجنوبيّة الحديثة مع الحبشيّة في مجموعة خاصّة هي اللغات السامية الجنوبيّة^(٢٤)، نُقرّ بصواب ما ذكره من تقارب بين العربيّة الجنوبيّة والسامية الوسطى في بعض الظواهر. إلا أنّ التقارب بين فرعيّ العربيّة الكبيرين: الشماليّ والجنوبيّ في ظواهر كثيرة أخرى (سبق ذكرُ بعضها في الحديث عن النظريّة التقليديّة)، يحملنا على

= فخر الدّين قباوة، ط ٤ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩)، ١/٤١٤؛ والبغداد، خزنة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: دار الناشر العربي، وناشرون آخرون، ١٩٦٧-١٩٨٦)، ٤/٤٢٩، فيها ذكر سُحيم عبد بني الحسحاس، إذ يقول: أَحْسَنُكَ وَاللّهِ يَرِيدُ: أَحْسَنُت.

٢١ إلا أنّ اللاحقة -n ترد في النقوش العربيّة الجنوبيّة، انظر:

Voigt, "The Classification of Central Semitic", Op. Cit., pp. 13-15.

كما أنّ اتّفاق العربيّة الشماليّة والعربيّة في استخدام $na/nā$ قد يكون ممّا طوّرتّه كلتا اللغتين، الواحدة بمعزل عن الأخرى، لأنّ ذلك ممّا يستدعيه عدم التباس صيغة الفعل المسند إلى المخاطبات والغائبات بصيغة الفعل المسند إلى المتّي، أي أنّ ضمير المخاطبات والغائبات -ā الذي يرجع إلى السامية الأمّ (بدليل وجوده في لغتين متباعتين كالأكدية والحبشيّة) غير في العربيّة الشماليّة والعربيّة منعاً للتباس، وحلّ محله ما يقابله في الصّائت المنفصلة للمخاطبات والغائبات.

٢٢ الخطّ المورفيميّ - أو خطّ التماثل المورفيميّ - خطّ لهجيّ، أو لغويّ بيّن، على الأطلس اللهجيّ، أو اللغويّ، حدود المنطقة التي يظهر فيها مَعْلَمٌ مورفيميّ ما؛ انظر: رمزي منير بعلبكي، معجم المصطلحات اللغويّة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠)، ص ٢٦٣.

٢٣ راجع تفصيلاً أكبر لهذا المتصل في: بعلبكي، "التأثيل المعجمي"، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥-٣٨.

اعتبارهما وحدة يصعب القول بانتفاء أحد طرفيهما إلى فرع ما، وانتفاء الآخر إلى فرع مختلف^(٢٥).

بعد هذا العرض الذي يُظهر موقع عربيّة الشمال في التصنيف الساميّ - وإليه يرجع كثير من خصائصها التي تشارك فيها أحواتها الأقرب فالأقرب - ننظر في هذه العربيّة نفسها استجلاءً للخصائص المميّزة لها على وجه التحديد.

يُستدلّ من النقوش المدوّنة بالعربيّة الشماليّة في أواسط الجزيرة وشمالها، وفي بادية الشّام، أنّ هذه اللغة فرعين كبيرين، يميّز بينهما أداة التعريف: فهذه الأداة في الفرع الأوّل هي h- أو hn، وكثيراً ما يُدغم الصّامت - n من الأداة الثانية في الصّامت الأوّل من الاسم الذي يلي الأداة؛ وهي في الفرع الثاني l- (وهي في الأصل التاريخي الذي ترجع إليه أداة التعريف في الفصحى). وتُظهر النقوش العربيّة إدغام لامها في الحروف الشمسيّة التي تليها^(٢٦). وإلى ذلك يميّز الفرع الأوّل صيغة "هفعل" التي تقابل صيغة "أفعل" في الثاني. ولما كان الفرع الثاني أقرب إلى الفصحى في هاتين الظاهرتين، وفي سواهما أيضاً، فإنّه من المنطقيّ أن يُعدّ دون الآخر أصلاً للفصحى؛ ولذا من الشّائع في الدراسات الحديثة أن يفرّق بين الفرعين بإطلاق اسم "عربيّة الشّمال العتيقة" Ancient North Arabian على الأوّل (وكان يُعرف سابقاً بـ "العربيّة الأمّ" Proto-Arabic)، ويضمّم لهجات مثل الديدانيّة واللحيانيّة والصفويّة والثموديّة المعروفة بـ "Thamudic B"^(٢٧)، وإطلاق اسم "العربيّة القديمة" (Old Arabic) على الثانية^(٢٨). ومع أنّ معرفتنا بالعربيّة القديمة هذه لا تزال في بداياتها، فإنها أخذت في الازدياد مع تواصل الكشف عن نقوش يمكن نسبتها إليها. ويرجع أقدم تلك النقوش إلى القرن الثالث قبل الميلاد (أو القرن الأوّل قبل الميلاد على أقلّ تقدير)، كما يعود أحدثها إلى ما بين الربع الثاني من القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديين. ولعلّ أقدم هذه النقوش تلك التي عُثِر عليها في قرية الفاو (على الطريق التجاريّة بين نجران وساحل الجزيرة الشّرقية)، ومنها نقش يَعْمَر، ونقش قيس مَنَوَة، ونقش عَجَل بن هَفْعَم، ونقش معاوية بن ربيعة، يليها السّطران الرابع والخامس من نقش عين عبدة (قبل ١٥٠ للميلاد؟)، فنقش الخريبة المعروفان بـ "JSLih 384 و JSLih 71" (القرن الأوّل للميلاد؟)، فنقش رَقوش من مدائن صالح (٢٦٧ للميلاد)، فنقش أمّ الجمال الأوّل من أعمال حوران (منصف القرن الثالث للميلاد)، فنقش النّارة من أعمال حوران

٢٥ يعتمد Lipiński في نحوه المقارن للغات الساميّة، وهو أهمّ مؤلّف في بابه منذ كتاب Moscati، الصادر في عام ١٩٦٤ (ط ٢ في عام ١٩٦٩)، على التفرقة بين عربيّة الشمال وعربيّة الجنوب من حيث التصنيف؛ فهو يجعل الساميّات أقساماً أربعة: الساميّة الشماليّة (وتجمع كتابات الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، ومنها الأوغاريّة)؛ والساميّة الشرقيّة (أي الأكديّة والبابليّة والأشوريّة)؛ والساميّة الغربيّة التي تضمّ اللغات الكنعانيّة (كالعبريّة والفينيقية) والآراميّة والعربيّة الشماليّة (الثموديّة واللحيانيّة والصفويّة والفصحى والعاميّا المعاصرة)؛ والساميّة الجنوبيّة (وتضمّ الحبشيّة قديمها وحديثها والعربيّة الجنوبيّة قديمها وحديثها). ومن الواضح أنّ الفصل بين فرعيّ العربيّة على هذا النحو لا يأخذ في الحسبان كثيراً من خصائصها المشتركة التي أضحت تتوزّع خلال العرض المقارن بين فرعين اثنين؛ انظر بخاصّة:

Edward Lipiński, *Semitic Languages...*, Op. Cit., p. 50.

٢٦ مثال ذلك (س ١ م ي)، أي "السّاء" الواردة في السّطر التاسع من نقش عَجَل بن هَفْعَم. وقد تُحذف الألف كتابيّة، نحو (ول ار ض)، الواردة في السّطر الثامن من النقش نفسه.

٢٧ انظر مثلاً:

David Graf and Michael J. Zwettler, "The North Arabian 'Thamudic E' Inscription from Uraynibah West", *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, No. 335 (2004), pp. 53-89.

٢٨ انظر:

Alfred F.L. Beeston, "Languages of Pre-Islamic Arabia", *Arabica*, No. 42 (1981), pp. 178-186.

Christian J. Robin, "Les Inscriptions de l'Arabie Antique et les Études Arabes", *Arabica*, No.48 (2001), pp. 541-543.

أيضاً (٣٢٨ للميلاد)... إلخ^(٢٩). وقد كُنّا حتّى الأمس القريب لا نعرف نقشاً يرجع إلى ما قبل القرن الثالث للميلاد^(٣٠)، فإذا بنا نكتشف أنّ نقوش الفاو ترجع إلى ما قبل ذلك بقرون عدّة. ومن الناحية الكتابيّة نلاحظ أنّ نقوش العربيّة القديمة، خلافاً لعربيّة الشمال العتيقة، لا تقتصر على ضرب كتابيّ واحد^(٣١)، فنقش عجّل بن هفعم مكتوب بالخطّ المسند، ونقشا عين عبدة والنارة بالخطّ الآرامي النبطيّ، ونقش زبد (بين قنسرين والفرات، ٥١٢ للميلاد) مكتوب بالخطّ العربيّ. وقد يكون منشأ هذا التنوع أنّ العربيّة القديمة كانت لغة مشتركة (Koine) ذات نطاق جغرافي واسع، اختلفت أنماطها الكتابيّة باختلاف الحواضر التي استُخدمت فيها. والمؤمّل أن تكشف نقوش أخرى جوانب مختلفة من طبيعة هذه اللغة، ومن الكتابات التي اصطنعت لها.

ثانياً: الفصحى

يبدو أنّ الفصحى هي وريثة العربيّة القديمة لما بينهما من خصائص مشتركة. إلا أنّ البحث عن هويّة الفصحى أكثر تعقيداً من هذا، وذلك أنّ بين العربيّة القديمة وعربيّة الشمال العتيقة صفات مشتركة لا تخصّص بها إحدى اللغتين دون الأخرى، حتّى إنّ بعض الباحثين يرى أنّهما حزمتان لهجيتان (dialect bundles) متعاصرتان^(٣٢). وليس أدلّ على صعوبة الفصل الحاسم بين هاتين اللغتين (أو اللهجتين) من أنّ بعض النقوش مكتوب بكليتهما، أو بالعربيّة القديمة ولغة ساميّة شماليّة غير عربيّة. مثال ذلك نقش عين عبدة، فهو في سته أسطر مكتوبة بحرف آرامي نبطيّ، أولها وثانيها وثالثها وسادسها لغته آراميّة نبطيّة، ورابعها وخامسها لغته هي العربيّة القديمة. أمّا نقش الخريبة ففي عشرة أسطر تبدأ باللهجة (أو اللّغة) الديدانيّة، بدليل استخدام الأداة (h(n) فيها للتعريف، ثمّ تنحو نحو العربيّة القديمة ابتداءً من السطر الرابع، فتظهر لامّ التعريف - وهي العلامة الفارقة للعربيّة القديمة ثمّ الفصحى - في السطر الخامس في كلمة (ب ل ح ج ر) أي "بالحجر"، وفي السطر الثامن في كلمة (ه ل م ف ل)، ونظيرها الاشتقاقيّ المفترض "المفالي"، أي الصّحاري، وقریب من ذلك في الفصحى "الفليّ" جمع فلاة. وإلى لام التعريف نجد في لغة بعض التّصوُّص خصائص تركيبية قريبة من الفصحى، حتّى إنّ أحدها قد أعيد تصنيفه، فأخرج من النقوش النبطيّة، وأدرج في نقوش العربيّة القديمة استناداً إلى تلك الخصائص. فقد كان (Jaussen) و (Savignac) قد أوردا في مطلع القرن الماضي، ضمن النقوش النبطيّة التي نشرها، النصّ المعروف بـ "JSNab 17"^(٣٣)، وهو نقش رُقوش الذي يُعدّ أقدم

٢٩ انظر قائمة تضمّن سبعة عشر نصّاً مدوّناً بلغة نرى أنها قد تكون العربيّة القديمة، في "مفردات العربيّة القديمة" في المعجم التاريخي للغة العربيّة".

٣٠ الكتابة العربيّة والساميّة، ص ١٢٣؛ وقارن القائمة المذكورة هناك بالقائمة المشار إليها في الهامش السابق.

31 Robin, "Les Inscriptions de l'Arabie Antique et les Études Arabes", Op. Cit., pp. 542-543.

Michael C.A. Macdonald, "Some reflections on epigraphy and ethnicity in the Roman Near East", In: *Identities in the Eastern Mediterranean in Antiquity, Proceedings of a conference held at the Humanities Research Center in Canberra, 10-12 November 1997, Mediterranean Archaeology*, No.11 (1998), p179.

٣٢ انظر:

Michael C.A. Macdonald, "Reflections on the linguistic map of pre-Islamic Arabia", *Arabian Archaeology and Epigraphy*, No.11 (2000), pp. 14-50.

Michael C.A. Macdonald, "Old Arabic (Epigraphic).", In: *Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics*, Ed. by Kees Versteegh (Leiden: E. J. Brill, 2008), Vol. III, p. 466.

33 Antonin Jaussen, and Raphaël Savignac, *Mission archéologique en Arabie*, 5 vols. (Paris: Ernest Leroux and Paul Geuthner, 1909-1922). (Repr., Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1997), pp. 172-176 /1.

واللوحتان ix و xxv.

نصّ عربيّ مؤرّخ حتّى يومنا هذا، إذ ينصّ على أنّه كُتب في عام ٢٦٧ للميلاد (١٦٢ بتأريخ بُصرى). وبقي هذا النّصّ معدوداً بين النقوش النبطيّة إلى أن أنعم النّظر فيه (Healey) و (Smith) في عام ١٩٨٩، فرجّح أنّ قراءته على أساس العربيّة القديمة أقرب إلى الصّواب وأدعى إلى حلّ المشكلات التي لازمته عقوداً من الزمن. وفي ما يلي نصّ النّصّ بأسطره التسعة متلوّاً بترجمته العربيّة^(٣٤):

١. ت ه ق ب ر و ص ن ع ه ك ع ب و ب ر
٢. ح ر ث ت ل ر ق و ش ب ر ت
٣. ع ب د م ن و ت و ا م ه و ه ي
٤. ه ل ك ت ف ي ا ل ح ج ر و
٥. س ن ت م ا ه و س ت ي ن
٦. و ت ر ي ن ب ي ر ح ت م و ز و ل ع ن
٧. م ر ي ع ل م ا م ن ي س ن ا ل ق ب ر و
٨. د ا و م ن ي ف ت ح ه ح س ي
٩. و ل د ه و ل ع ن م ن ي ق ب ر و [ي ع] ل ي م ن ه

والمقابل العربيّ للنصّ هو التالي:

١. ت ه قَبْرٌ صَنَعَهُ كَعْبُ بِن
٢. حارثة لرقوش بنت
٣. عبد مناة أمّه وهي
٤. هلكت في الحجر
٥. سنة مئة وستين
٦. واثنين بشهر تموز ولعن
٧. إله العالم من يشنأ القبر
٨. هذا ومن يفتحه حاشا

٣٤. مما تستند إليه قراءة النصّ باعتبار لغته آراميّة نبطيّة أنّه مبدوء باسم الإشارة (دن ه)، إلا أنّ القراءة الصحيحة - كما أثبت Healy و Smith - هي (ت ه) أي "ته" العربيّة. وإلى ذلك ترد في النصّ المفردتان (بر) و(برت)، أي "ابن" و"ابنة" وهما آراميّتان، إلا أنّ أسماء الأعلام ليست في الأغلب عُرضة للتغيّر حين تُقترض من لغة إلى أخرى بقدر ما يقع في سائر المفردات؛ ومن ذلك أنّ (بر) ترد في السّطر الأوّل من نقش النّارة، ولا خلاف على أنّ النصّ من العربيّة القديمة. أمّا تأريخ النّصّ بالأراميّة فلا يعني أنّ لغته آراميّة بالضرورة، نظراً إلى شيوع التّأريخ بها حتّى أضحي نوعاً من التقليد الكتابيّ.

٩. وَلَدَه وَلَعَنَ (أَوْ لَعَنَ) مَنْ يَتَقَبَّرُ وَيُعْلِي مِنْهُ

في النصّ دلائل كثيرة على أنه من العربية القديمة، أبرزها استخدام "ال" للتعريف في السطر الرابع (ال ح ج ر و)، والسابع (ال ق ب ر و)^(٣٥). وإلى ذلك من الجلي أنّ طابع التركيب عربيّ في مطلع النّقش، أعني عبارة "هذا قبرٌ صنّعه كعب بن حارثة لرقوش بنت عبد مناه أمّه وهي هلكت في الحجر... إلخ"، وهذا دليل بالغ القوّة على عربيّة النصّ، لأن التراكيب النحويّة هي التي تحدّد هويّة اللغة بأكثر ممّا تحدّده صيغٌ جاهزة (مثل طريقة التأريخ مثلاً)، أو بعضُ المفردات المقرّضة. ومن الدلائل الأخرى على عربيّة النصّ ورود صيغة الماضي (ول ع ن) للدعاء في السّطرين السادس والتاسع، وهذا مطابق للفصحى، ولا يرد نظيره في الآرامية.

والخصائص التركيبية التي تتسم بها الفصحى ترجع جذورها إلى ما قبل القرن الثالث للميلاد، أي زمن نقش رَقوش، فهي ماثلة في نقوش قرية الفاو، التي يرجّح أنّها تعود إلى فترةٍ قد تصل إلى القرن الثالث قبل الميلاد، أو القرن الأوّل قبل الميلاد على أقرب تقدير كما مرّ. وأطول تلك النقوش نقش عجل بن هفعم، نُبِت هنا نصّه ذا الأسطر العشرة إظهاراً لقربه الشّديد من الخصائص التركيبية للفصحى:

١. ع ج ل ب ن ه ف ع م ب ن ل ا خ ه ر ب ب ل ب ن ه

٢. ف ع م ق ب ر و ل ه و و ل و ل د ه و و م

٣. ر ا ت ه و و ل د ه و و و ل د و ل د ه م

٤. و ن س ا ي ه م ح ر ي ر ذ و ا ل غ ل و ن ف

٥. ا ع ذ ه ب ك ه ل و ل ه و ع ث ر

٦. ا س ٢ ر ق م ن ع ز ز م و و ن ي م و

٧. س ٢ ر ي م و م ر ت ه ن م ا ب د م

٨. ب ن و ك س ا م ع د ك ي ت م ط

٩. ر ا س ا م ي د م و ل ا ر

١٠. ض س ٢ ع ر

ويقابل هذا النصّ في الفصحى النصّ التالي نُبِته كما أورده ناشر النصّ، عبد الرحمن الأنصاري^(٣٦)، ثم نعلّق على بعض ما فيه:

١. عجل بن هفعم بنى لأخيه رب إل بن

٣٥ إلا أنّ "ال" لم ترد في العبارة التالية (م ر ي ع ل م ا)، أي إله العالم، في السطر السابع، بل وردت بصيغتها الآرامية؛ ويبدو أنّ هذه الصيغة "الدينية" أبقيت في لغة كاتب النصّ على أصلها الآرامي، وهو أمر ليس بمستغرب في مثل هذه الصيغ التي تتسم بشيء من "القدسية" يفضي إلى الاحتفاظ بصيغتها الأصلية.

٣٦ عبد الرحمن الطيّب الأنصاري، "قرية" الفاو: صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية (الرياض: جامعة الرياض، ١٩٨٢)، ص ٢١.

٢. هفعم قبرًا، وله ولولده

٣. وامرأته وأحفاده وأحفاد أحفاده

٤. ونسائهم الحرائر من آل غلوان

٥. فأعاده بكهل ولاه وعشر

٦. أشرق من كل ضيق وونى

٧. وشر وزوجاتهم أبدًا

٨. من كل خسارة، وإلا فلتمطر

٩. السماء دماء والأرض

١٠. سعيًا

يتضح بما لا يقبل الجدل أنّ النصّ مطابق بتركيبه للفصحى مطابقةً قد تكون تامة؛ فلو نحن أحللنا مكان كلّ مفردة من مفرداته ما يقابلها في الفصحى لما أشكلت قراءته كأنه نصّ مكتوب بها. أمّا خصائص النصّ التي لا توافق الفصحى - كاستخدام التميميم في (ا ب د م) التي تقابل "أبدًا"، أو ورود (ب ن) بمعنى "من" - فثانوية في أهميتها قياسًا على نظم الكلام، وقد لا تتجاوز ما بين لهجات الفصحى نفسها من تباين في بعض الأحكام. ونشير أخيرًا إلى أنّ بعض ما جاء في نصّ الأنصاري يحتمل تفسيرًا أقرب إلى الصواب^(٣٧)، إلا أنّ ذلك لا يُخرج النصّ في حال من الأحوال عن طبيعته التي تتطابق مع قواعد الفصحى من حيث التركيب في المقام الأول.

إنّ مرحلة العربيّة القديمة هي المرحلة التي بدأت فيها العربيّة الشماليّة - على ما نعلم ممّا بين أيدينا من كتابات - تتميّز بخصائص انفرادت بها عن أخواتها، بما في ذلك أقربها إليها، أعني عربيّة الشمال العتيقة. وإذا أردنا أن نختار سمةً واحدة تكون هي العلامة الأوثق على عربيّة أيّ نصّ (ونعني العربيّة القديمة، ثمّ الفصحى) لما وجدنا أفضل من أداة التعريف "ال"، وذلك لكثرة ورودها قياسًا على سائر الأدوات والمفردات، وهي ترد في أقدم النصوص على الإطلاق، ابتداءً من نقوش الفاو ونقش عين عبدة ونقش الخريبة (JSLih 71)، ونقش رَقوش ونقش النمارة... إلخ. والمؤدّي أنّ كلّ نصّ فيه "ال" هذه عربيّ، سواءً أكان في المراحل الأولى للعربيّة القديمة أم في المراحل الأقرب إلى تاريخ الفصحى. ونخلص ممّا تقدّم إلى تحديد نسب الفصحى، فهي مرحلة من العربيّة الشماليّة تالية للعربيّة القديمة التي تتصلّ اتصالًا وثيقًا بعربيّة الشمال العتيقة، وهذه كلّها

٣٧ من ذلك عبارة "من كلّ ضيق وونى وشرّ وزوجاتهم" (س ٦ - ٧)، ذلك أنّه من المستغرب أن تتوازي المفردات الثلاث الأولى، وهي كلّها مصادر، ثمّ يُعطف عليها مفردة تعني "زوجاتهم". وعلاوة على ذلك نستبعد أن تكون (وم رت ه ن م) بمعنى "زوجاتهم"، نظرًا إلى وجود النون معترضةً بين هاء الضمير وميمه، ولأن (وم رات ه) التي وردت بين السطرين الثاني والثالث كتبت بالألف، الأمر الذي يُضعف احتمال كتابتها من غير ألف في النصّ نفسه. ولعلّ القراءة الأفضل هي "من كلّ عزيز ووان وباع ومزّهن"، حيث يستقيم العطف بين أربع مفردات كلّها أساء فاعلين، أو صفات مشبهة؛ انظر

Alfred F.L. Beeston, "Nemara and Faw", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, No. 42 (1979), p. 1. &: Robin., "Les Inscriptions de l'Arabie Antique et les Études Arabes", Op. Cit., p.549.

وقد تكون ترجمة الأسطر الثلاثة الأخيرة كالتالي: "طلما أنّ السماء تُمطر والأرض تُنبّت" على اعتبار أنّ معنى (ع د ك ي) "طلما" (وليس "إلا")، وأنّ (س ٢ ع ر) تعني الشّعار، أي العشب أو السّجّر (وليس "السعير").

تقع في مجموعة واحدة تتصل اتصالاً وثيقاً بالساميات الجنوبيّة، أي العربيّة الجنوبيّة والحبشيّة (بحسب النظرية التقليدية)، وبالساميات الشماليّة الغربيّة (بحسب النظرية الحديثة). ولعلّ قولنا إنّ العربيّة لغة لام التعريف أصوب من القول إنّها لغة الضّاد، فالضّاد قد يقترّب نظقيّاً في الفصحى من نطقها في بعض أحوالها، وأمّا أداة التعريف - وإن تكن أداة صرفيّة لا صوتاً لغويّاً بعينه - فهي عربيّة خالصة تحدّد هويّة النّصّ أنه عربيّ، وتحدّد هويّة القوم الذين وضعوه أمّهم عرب.

وإذ إنّ كلّ لغة تكتسب هويتها من انتماؤها إلى منظومةٍ من اللغات تقع ضمنها، ومن خصائص تنفرد بها دون سواها، يتعيّن أن نحدّد هويّة العربيّة - ونعني بها، عند إطلاقها حتّى آخر هذا البحث، الفصحى تحديداً - استناداً إلى ما اكتسبته من انتماؤها إلى المجموعة الساميّة، وإلى ما تنفرد به، أو تكاد عن سائر لغات تلك المجموعة، أي ما يُعدّ ابتكارات عربيّة خالصة.

أمّا معالم الهوية التي اكتسبتها العربيّة من المجموعة الساميّة، أي من الساميّة الأمّ على الأرجح، فلا حاجة بنا إلى التوسّع فيها لعمومها^(٣٨)، وكفي أن نُجملها في زمر أربع قبل أن ننظر في الخصائص المميّزة للفصحى، سواءً منها ما يتّصل ببعض ما في هذه الزمر أم بطواهر أخرى:

الرّزمة الأولى، هي الخصائص الصوتية التي تشترك فيها الساميات؛ ومنها:

أ- الأصوات الحلقية، وهي الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والحاء، وكلّها ممّا احتفظت به العربيّة من الساميّة الأمّ، بخلاف معظم أحوالها اللاتي قلّصن عددها الأصلي.

ب- الأصوات المُطبّقة، وهي الصّاد والضّاد والطّاء والطّاء والقاف، وقد احتفظت العربيّة بها كلّها، في حين طرأت عليها تحولات مختلفة في أحوالها.

ج- النّظام الصائتي، ويتكوّن من ثلاثة صوائت قصيرة، هي الفتحة والكسرة والضّمّة، وثلاثة هي نظائرها الطويلة، وصائتان ثنائيتان (diphthong)، هما -aw -ay.

د- النظام المقطعيّ، ويقتصر على نوعين، أحدهما مفتوح، وهو مكوّن من صامت متبوع بصائت قصير أو طويل (أي من نوع CV)، والآخر مغلق، وهو مكوّن من صامت فصائت قصير أو طويل فصائت (أي من نوع CVC)^(٣٩). ويبدو أنّ العربيّة اكتسبت من الساميّة الأمّ أيضاً بدء المقطع الأوّل من الكلمة بصامت واحد، وعدم توالي صامتين إلا في وسط الكلمة، كتوالي الباء والتاء في نحو "كَتَبْتُ" katabtu.

الرّزمة الثانية، الخصائص الصرفيّة؛ ومن أهمّها:

أ- وجود جذر افتراضيّ مقتصر على الصّوامت، يمكن أن تُنسب إليه كلّ مشتقات المادّة الواحدة،

٣٨ للتوسّع في الخصائص الساميّة المشتركة التي أسهمت في تكوين هويّة العربيّة، انظر: رمزي منير بعلبكي، فقه العربيّة المقارن: دراسات في أصوات العربيّة وصرّفها ونحوها على ضوء اللغات الساميّة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٩)، ص ٤٠-٥٧.

٣٩ يقصّر بعض الساميات الصائت الطويل في المقطع المغلق CVVC؛ وأثر هذا بيّن في العربيّة في مواضع كثيرة منها جزم الفعل المعتلّ الوسيط، نحو "يموت"، إذ يصير في الجزم "يُمُت" بعد تقصير المدّ الطويل: yamut < *yamüt < yamütu، ومثل هذا لا يحدث في صيغة "يموتون" التي تصير في الجزم "يموتوا" (وليس *يُمُتوا) لعدم وجود صائت طويل ذي مقطع مغلق.

وذلك أنّ صوامت الكلمة المشتقة هي التي تعبّر عن المعنى العامّ الكائن في ذلك الجذر، في حين تعدّل الصّوائت والزوائد ذلك المعنى فتتحوّبه، مثلاً، نحو اسم الفاعل، أو اسم المفعول، أو المصدر، أو جمع التّكسير، أو الفعل الماضي... إلخ؛

ب - التفرقة بين المذكر والمؤنث بعلامات مخصوصة للتأنيث في الأعمّ الأغلب، وعدم وجود مقولة المحايد (neuter) التي تقع عليها في لغات أخرى كالألمانية.

ج - التفرقة بين أعداد ثلاثة، أي المفرد والمثنى والجمع، بعلامات مخصوصة للتثنية والجمع بنوعيّة المذكر والمؤنث؛

د - استخدام سوابق (prefixes) ودواخل أو حواش (infixes) ولواحق (suffixes) هي زوائد صرفيّة اشتقاقية ترتبط في الأغلب بمعان متقاربة في مختلف الساميات، ومنها همزة التعدية، وياء المضارعة، وتاء "افتعل"، وسين "استفعل" وتاؤها، ونون التوكيد، والمدّ الطويل متلوّاً بتاء في جمع المؤنث السالم.

أمّا الرُّمزة الثالثة فتتصل بالخصائص التركيبية أو النحويّة، وأبرزها:

أ - الحالات الإعرابية الثلاث، ويرتبط كلّ منها بصائت: فالضمّة تفيد الإسناد، والفتحة تفيد المفعوليّة، والكسرة تفيد الإضافة.

ب - التّعبير في الأغلب بصيغة الفعل الماضي عن الحدث المنقضي، وبصيغة المضارع عن الحدث غير المنقضي، أي إنّ الأساس في استخدام الصيغتين الفعليتين (أو ما يقابلها في بعض الساميات، كالأكدية) إنّما هو للتّعبير عن انقضاء الحدث، أو عدم انقضائه، لا عن الزمن من حيث المضيّ والحال والاستقبال؛

ج - ظواهر تركيبية كثيرة مشتركة تشمل نواحي منها الجمل الفعلية والاسميّة، وغياب الرابط بين المسند إليه والمسند، والعطف بين التراكيب، والتّقي، والاستفهام، والنعت، والمفعول المطلق... إلخ.

وأمّا الرُّمزة الرابعة فمدارها الدلالة، ولا سيّما المخزون المشترك من الألفاظ التي تقدّر أنّها ترجع إلى مرحلة الساميّة الأمّ، ومنها مفردات تتصل بأمر أساسية، أو "بدائية"، نحو أسماء أعضاء الجسم (الرأس والعين والأنف والأذن واليد والشعر... إلخ)، أو أسماء القربان (الأمّ والأب والأخ والبعل... إلخ)، أو التّبات (السنبلة والعضة والعنب والثوم والشّعير... إلخ)، والحيوان (الثور والضأن والخنزير والحمار والدب... إلخ) (٤٠). وإلى ذلك في الأغلب ما تتصل مزيدات الأفعال وأوزان الأسماء في الساميات بمعان مشتركة ترجع إلى مرحلة الساميّة الأمّ.

هذه المعالم الكبرى التي طبعت العربيّة بطابع انتمائها الساميّ لو شئنا لوسعناها بالنظر إلى انتهاها الساميّ - الحاميّ أو الأفرو - آسيويّ، إلا أن من شأن ذلك أن يفضي إلى قدر أكبر من التعميم، لأنّ الجامع بين اللغات الساميّة والحاميّة يقتصر على عموميّات لا تفي بغرض المقارنة الهادفة إلى تحديد دقيق للخصائص المشتركة بين

٤٠ انظر، مثلاً:

Alexander Militarev, and Leonid Kogan, *Semitic Etymological dDictionary*, 2 vols. (Münster: Münster-Verlag, 2000-2005).

فالجزء الأوّل من كتابها مخصّص بأكمله لأعضاء جسم الإنسان والحيوان، والثاني مخصّص بأكمله أيضاً لأسماء الحيوان، وفي كلّ مادة ذكرٌ للصّيغ المختلفة للاسم الواحد حيثما ورد في اللغات الساميّة قديمها وحديثها.

أفراد المجموعة اللغوية، تلك الخصائص التي تُسهم إسهامًا واضحًا في تحديد هوية اللغة، وهي العربية، أي الفصحى في بحثنا هذا. وفي مطلق الأحوال، إنَّ الخصائص التي اكتسبتها العربية من انتسابها إلى الساميات، أو إلى الساميات - الحاميات لو أردنا مزيدًا من التعميم، إنَّما تمثّل جانبًا واحدًا من مجمل خصائصها، فهويتها لا تكتمل إلا بمجموعة أخرى من الخصائص تُصنّف بها دون سواها من أخواتها، إمّا بانعدام تلك الخصائص في أخواتها بالكلية، أو باقتصارها فيها على قدر لا يداني ما في العربية. والحقّ أنّ هذا الجانب من الخصائص هو الذي يُكسب العربية فرادتها في مجموعتها، ويحدّد ما يمكن أن نُسَمِّيه "كُنْهها"، أو "روحها"، أو "شخصيتها"، أو "عبريتها"، وإن كُنّا نفضّل استخدام المصطلح "هوية" لهذا المعنى، انطلاقًا من أنّ لكلّ لغة "هوية"، وإن كانت اللغات تتفاوت في استغلال المعالم التي تُكسبها هويتها في نتاجها الأدبيّ والفكريّ والحضاريّ، بله الكلام العاديّ أو اليوميّ. ولا ريب أن ممّا يميّز العربية عن معظم أخواتها الساميات استمرارها في قيد الاستعمال بعد أن اندثرت تلك، علمًا بأنّ النصوص المنتسبة إلى العربية - وأقدمها نصوص العربية القديمة - تُعدّ فتيّة قياسًا على بعض الساميات التي ترجع إلى الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد (مثل النقوش الإبلاوية في تلّ مردوخ، وهي ترجع إلى القرنين الرابع والعشرين والثالث والعشرين قبل الميلاد). والواقع أنّ عدم امتلاكنا نصوصًا عربية ترجع إلى أبعد من القرن الثالث قبل الميلاد على أبعد تقدير - وهو تاريخ لم يكن يتوقّعه الدارسون منذ عقود قليلة ظلًّا منهم، كما مرّ، أن أقدم نصوص العربية يرجع إلى القرن الثالث للميلاد - ليس بدليل قاطع على عدم وجودها في زمن أسبق، لأنّها قد تكون ممّا ضاع أو ما زال دفينًا. إلا أنّ مسألة قدّم اللغة، أو نصوصها، ليس لها بالضرورة علاقة بمسألة هويتها من حيث الحفاظ على الأصل المشترك في اللغة الأمّ، فالعربية تحديدًا، وإن تكن حديثة نسبيًّا إذا ما قيست بأخواتها، تحتفظ بخصائص كثيرة من خصائص السامية الأمّ في حين يبدو بعض أخواتها، ممّا يسبق نصوصه نصوص العربية، أكثر منها ابتعادًا عن ذلك الأصل. ولئن ازداد في العقود القليلة الماضية اعتقاد الدارسين أنّ العربية، على وجه الإجمال، ليست محافظة على أصول السامية الأمّ بالقدر الذي كان شائعًا من قبل، لا يغيبن عن بالنا أنّ مسألة المحافظة، أو التجديد، لا تستدعي فخرًا، ولا تستتبع مذمة، وأنّ مهمّة اللغويّ رصد الحقائق اللغوية وتأويلها من دون إعطائها أبعادًا تُخرجه عن تجرّده وموضوعيته.

خاتمة

نخصّص الجزء الأخير من هذا البحث للضرب الثاني من خصائص العربية، والمراد به الظواهر التي تنفرد بها، أو تتوسّع بها، عمّا في سائر الساميات حتّى أضحت سمات مميزة لها، وهي ظواهر صرفية في الأغلب. وأستند في الظواهر الستّ التالية إلى ما كننّ قد استخلصته منها في كتابي *فقه العربية المقارن*^(١١)، على أن يكون التركيز في هذا المقام على العناصر اللغوية التي تعزّز، مجتمعةً، كلاً من تلك الظواهر، وتبيّن قدرة العربية على الابتكار، أو على استغلال المادّة الموروثة لتوسيعها أو تعميمها أو ضبطها:

الظاهرة الأولى ابتكار أدوات وأوزان لا ترجع إلى مرحلة السامية، باعتبار ورودها مقتصرًا على العربية دون سائر الساميات، أو مشاركا لبعضها، لكن لوظائف مختلفة. ويندرج تحت هذه الظاهرة النماذج التالية:

٤١ فقه العربية المقارن، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٣ - ١٦٤.

أ- تختصّ العربية ببعض أوزان الأفعال، فلا ترد في سواها، ومنها "أفعل" و"أفعال" و"أفعلل" و"أفعللي" و"أفعللي"؛ ولعلّها ابتكرت بعض هذه الأوزان لتخصّصها بدلالات معيّنة، مثل دلالة اللون في "أفعل" و"أفعال"، أو بضرب محدّد من الاشتقاق، نحو "أفعللي" الذي يُشتقّ من الأسماء عادة^(٤٢).

ب- لم تخصّص الساميات أداة للتّكثير، فالسياق هو الفيصل في كثير من الأحيان، أو يستخدم بعضها للتّكثير المفردة الدالّة على العدد "واحد" (كما في العبريّة eḥād īs، أي "رجلٌ واحدٌ"، والمراد "رجلٌ" بالتّكثير)^(٤٣). أمّا العربيّة فقد استخدمت التّونين بإزاء أداة التّعريف للترقّة الحاسمة بين التّكرات والمعارف. والتّونين من المخزون الساميّ المشترك، ويرد (مع نظير له هو التّميم) في العربيّة الجنوبيّة^(٤٤). وإلى هذا فإنّ بعض أخوات العربيّة تستخدم أدوات تعريف فقدت قوتها على التّعريف في زمن لاحق، كالآرامية مثلاً، إذ صارت اللاحقة -ē فيها - وهي في الأصل للتّعريف - تلحق بأواخر الأسماء من دون أن تفيد تعريفاً. ومجمل القول إنّ العربيّة خصّصت أداة، هي التّونين، بأن جعلتها علماً على التّكثير، كما يقول النحويّون، وألحقتها بالمفرد وجمع المؤنث السالم وجموع التّكسير^(٤٥)، وجعلتها تعاقب لام التّعريف والإضافة، فلا يكونان معها.

ج- تنفرد العربيّة بصيغة صرفيّة للتّفضيل بنوعيه، أي درجة التّفضيل (comparative degree) والدرجة الفُضلي (superlative degree). وصيغة "أفعل" التي تعبّر عن تينك الدرّجتين ساميّة مشتركة، إلّا أنّ العربيّة أسندت إليها دلالة التّفضيل، واستخدمتها في ذلك استخداماً قياسيّاً لأداء وظيفة سياقيّة محدّدة، وذلك خلافاً لأخواتها التي يخلو أيّ منها من صيغة مشابهة في الوظيفة^(٤٦).

د- طوّرت العربيّة صيغة "أفعل" للدّلالة على التعجّب، وكذلك صيغة "أفعل"، وجعلت ذلك قياساً مطّرداً في "ما أفعله" و"أفعل به". وعلاوة على ذلك تعبّر صيغٌ محدّدة أخرى عن مفهوم التعجّب، نحو "فعل" (بشّ) و"فعل" (حُسن)^(٤٧). أمّا أخوات العربيّة فليس في أيّ منها صيغة، أو وزان للدّلالة على التعجّب.

والظاهرة الثانية تخصّص صيغ من الساميّة الأمّ، أي ممّا يقع في العربيّة وغيرها وتصحّ نسبتها إلى مرحلة نشأة الساميات، بدلالة جديدة ليست من أصل الاستعمال. ولعلّ في "ج" و"د" أعلاه ما يصحّ أن يكون - علاوة على ارتباطه بوظائف سياقيّة محدّدة ليس لها نظائر في سائر الساميات - مثالا على هذه الظاهرة لأنّ الصيغ المستخدمة فيها (نحو: "أفعل" و"أفعل" و"أفعل") من الساميّ المشترك. ومن أبرز الأمثلة على هذه الظاهرة مصادر الأفعال المُستقاة من أوزان ساميّة مشتركة، أو أوزان ابتكرتها العربيّة: فالمصدر الميميّ، مثلاً، ساميّ

٤٢ من ذلك "أحبطي" من "أحبطي"، و"أغلندي" من "أغلندي"، و"أغرندي" من "أغرندي"؛ انظر: Henri Fleisch, *Traité de Philologie Arabe*, 2nd Ed., 2 vols. (Beirut: Imprimerie Catholique, 1990), p. 2/332.

٤٣ انظر ظاهرة استخدام العدد "واحد" للتعبير عن التكررة في بعض الساميات في: Edward Lipiński, *Semitic Languages...*, Op. Cit., pp. 280-281.

٤٤ يحسن التّنبية إلى أنّ العربيّة الجنوبيّة تستخدم التّميم للتّكثير (نحو ṣlmm "صنم")، والتّونين للتّعريف (نحو ṣlmm "الصنم")، فتخالف العربيّة الشماليّة في ذلك.

٤٥ أمّا في التّثنية وجمع الذّكور فدليل تنكيرها عدم استخدام لام التّعريف.

٤٦ تعبّر اللغات الساميّة الأخرى عن التّفضيل بوسائل مختلفة، إلّا أنّها لا تخصّص لذلك صيغة محدّدة، من ذلك إتباع الصفة بـ"من" نحو qātōn min في العربيّة (أي: "صغيرٌ من"، والمراد "أصغر من").

٤٧ لعلّ "بشّ" bi'sa أصلها بيشّ bāisa، فنقلت كسرتها إلى ما بعد الباء، فحلّت محلّ الفتحة. أمّا "حُسن" ḥusna فالظاهر أيضاً أنّه منقول من "حُسن" ḥasuna على غرار ذلك؛ وهذا موافق لما يقوله ابن جني في شرحه عبارة "حُسنٌ ذا" (الخصائص ٤٠/٣).

مشترك، إلا أنه يتميز بقياسية استخدامه في العربية، فهو على وزن "مَفْعَل" أو "مَفْعَل" من الثلاثي، وعلى مثال اسم المفعول مما فوق الثلاثي. وإلى ذلك خصت العربية مصدر المرة بوزان "فَعْلَة"، ومصدر الهيئة بوزان "فَعْلَة". ومما ابتكرته العربية من المصادر المصدر الصناعي، ومُنشأه إكساب ياء النسب المشددة الدلالة على المصدر. ومما أوزان المصادر الأصلية للفعل المجرد فتقارب في العربية الأربعة، في حين لا تتعدى واحداً في الآرامية، مثلاً، هو miqṭal، واثنين في الحبشية مثلها nagīr و nagīrōt، الأمر الذي يظهر اتساع العربية في استخدام الصيغ الصرفية مقارنةً بأخواتها.

والظاهرة الثالثة تعميم العربية بعض الظواهر الصرفية على سبيل المقايسة، الأمر الذي يجعلها ظواهر مطردة في أبواب كثيرة من الاستعمال، ومما يمثل هذه الظاهرة:

أ - تعميم استخدام المجهول على مزيادات الأفعال: فالمجهول من المشترك السامي على الأرجح، إلا أن وجوده في أخوات العربية غير مطرد أو مقصور على مزيادات بعينها^(٤٨). أما العربية فقد طردته بالمقايسة، فأجازته في كل فعل يحتمله، أي ما لم يمنعه مانع دلالي، في نحو ما يدل على اللون ("أحمر") و"أحمار"... إلخ)، أو في بعض الأفعال اللازمة والتاقصة ("حَسَن" و"كان"... إلخ)؛

ب - تعميم التثنية: وهي أيضاً من المشترك بين الساميات، إلا أن العربية قيسته، في حين أنه يقتصر في الآرامية، مثلاً، على كلمتين لا غير^(٤٩)، وفي العربية على أعضاء الجسم المثناة، أو الكلمات المثناة بطبيعتها (مثل الميزان ذي الكفتين). ولم تكتفِ العربية بتثنية الأسماء، بل عممت ذلك إلى الصفات والصفات وأسماء الإشارة، فضلاً عن انفرادها بتثنية الأفعال؛

ج - تعميم التصغير - وهو مقصور في الساميات على أمثلة مفردة - وتخصيصه بصيغ قياسية ثلاث، هي "فُعَيْل" و"فُعَيْعِل" و"فُعَيْعِيل"، بل واستخدامه في "الأسماء المهمة"، مثل أسماء الإشارة والموصول والظرف والتعجب والعدد (نحو: "ذِيَاك" و"اللَيْتَا" و"قُبَيْل" و"مَا أَحْيَسِن" و"مُحْمِيسَة")^(٥٠).

د - تعميم التأنيث ليشمل عدداً من الأدوات - وهو ما يسميه النحاة تأنيثاً لفظياً - نحو: "نَمَّ / نَمَّة"، و"نُمَّ / نُمَّة"؛ و"رَبَّ / رَبَّة" و"أَيْهَا / أَيْتُهَا".

والظاهرة الرابعة هي الاتساع في مكوّنات بعض المقولات؛ ومن أشهر الأمثلة على ذلك تعدد مصادر الفعل الواحد، كأن يكون للفعل الثلاثي "لَقِيَ" ثلاثة عشر مصدرًا، على ما نقل صاحب اللسان عن ابن بري^(٥١)، وقريب من هذا مصادر "مكث" و"رغا" وغيرها؛ ولا شك في أن من أسباب هذا التعدد اختلاف اللهجات، على ما نرى أيضاً في تعدد جموع التكسير للمفردة الواحدة. ومن أمثلة الاتساع ما يتصل باستخدام نوعين صرفيين اثنين للمقولة الواحدة، نحو استخدام "الذي" ومشتقاته ("التي" و"اللدان"... إلخ) و"ذو" ومشتقاته

٤٨ قد تكون العربية أكثر الساميات استخداماً للمجهول بعد العربية، ومع ذلك فهو لا يرد فيها إلا من المزيدين pi'el (فَعْلَل) و hiph'il (أَفْعَل)، وفي أمثلة أخرى تُعدّ من التوارد.

٤٩ هما tarēn ومؤنثه tartēn أي اثنان/ اثنتان، و matēn، أي مائتان.

٥٠ مما يدل على قياسية التصغير ما نقل من تصغير الأفعال، كتصغير "سَلَّ"، و"قُمَّ"، و"مَرَّ"، و"بَعَّ" على "سَوَيْل"، و"قَوَيْم"، و"مَرِير"، و"بَيْع". انظر: جلال الدين السيوطي، مع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٧هـ)، ١٨٧/٢. ويذكر ابن يعيش أن القياس يأبي تصغير الفعل: ابن يعيش، شرح المفصل (القاهرة: المطبعة المنيرية، د.ت)، ١٣٥/٥. إلا أننا نرى أن تصغيره - وإن لم يكن شائع الاستعمال - دليل على قياسية الظاهرة ولو من منطلق نظري.

٥١ جمال الدين بن منظور، لسان العرب (مصر: بولاق، ١٣٠٠-١٣٠٧)، مدخل: لقا.

("ذات" و "ذو" ... إلخ) في الأسماء الموصولة. ولعلّ في ظاهرة تفريع الأدوات دليلاً آخر على الاتّساع، فللعربيّة قدرةٌ فائقة على استحداث أدوات جديدة، لا نظير لها في أخواتها، من آخر تُعدّ أصلاً لها؛ من ذلك استحداث "أنّ" من "إنّ"، فللثانية نظائر ساميّة، إلا أنّ الأولى ابتكارٌ عربيّ خالص. ومن أمثلة تفريع الأدوات أيضاً ما يُستدلّ عليه بالثنائيات، أو المجموعات التالية: س/ سوف؛ مذ/ منذ؛ علّ/ لعلّ؛ لكنّ/ لكنّ؛ لدى/ لدنّ؛ أمّا/ إمّا؛ أو/ أم؛ لم/ لمّا؛ قطّ/ فقط؛ بين/ بينا؛ بينا؛ إذ/ إذا؛ إذا؛ ألا/ ألاّ؛ هلا/ هلاً.

أمّا الظاهرة الخامسة فدلالية، ومَرَدُّها إلى الطاقة الدلالية لكثير من الصيغ والأدوات، فقد تكون المفردة، أو الأداة، دالّة على معنى مركزيّ أو أساسي، زائداً عليه معنى فرعيّ تخصّصيّ. من ذلك، مثلاً، جموع القلّة، وجموع الكثرة، فالمقابلة بين "أكلب" و"كلاب"، تُظهر أنّ دلالة الجمع في كلّ تقترن بدلالة أخرى هي القلّة في الأوّل، والكثرة في الثاني. ومنه أيضاً في أفعال المقاربة الدلالة على اقتراب وقوع الحدث دون وقوعه، وفي أفعال الإنشاء الدلالة لا على وقوعه فحسب، بل على ابتداء ذلك، وكلاهما ممّا تنفرد به العربيّة في المجموعة الساميّة. أمّا في الأدوات فيقع مثل هذا في حروف العطف التي تحمل معنى العطف، ومعنى آخر يقترن به كالترتيب (في الفاء)، والتراخي (في ثمّ)، وكذلك أدوات النداء في اختصاصها بالقرب أو البعيد أو التندبة.

وأمّا الظاهرة السادسة فنحويّة، وتتمثّل ببناء العربيّة أنظمة نحويّة متطورة من المادّة نفسها التي تشاركها فيها أخواتها من دون أن تشاركها في اكتمال أنظمتها هي. يظهر ذلك جليّاً في حركات الإعراب، فهي في الأصل ساميّة مشتركة بدليل وجودها في الأكديّة والأوغاريتيّة مثلاً، إلا أنّ النظام الذي طوّرتة العربيّة لهذه الحركات يتسم بالاطراد والتعميم، ويشمل، مثلاً، أحكاماً فصلها النحويون في أبواب، مثل المستثنى والمنادى وأسماء العلم، ممّا لا تقع عليه في سائر الساميات. والظاهرة نفسها قائمة في التراكيب التي تستخدمها العربيّة للتعبير الدقيق عن زمن الحدث - لا مجرد انقضائه أو عدم انقضائه - وذلك باستخدام صيغتي الماضي والمضارع فحسب، نحو "كان فعل"، و"كان قد فعل"، و"كان يكون فعل"، و"كان سوف يكون"، و"لمّا يفعل" (مقارنةً بـ "لم يفعل")، علاوةً على أدوات نحو "إذ" و"إذا" الفجائيتين، و"ما" المصدرية، وتصغير الظرف... إلخ، ممّا لا يقع في أخواتها، ويدلّ على مدى نموّ العربيّة وتطورها قياساً عليها.

لقد حاولنا في ما سبق أن نعرض للخصائص الأساسية للعربيّة، تلك الخصائص التي لا تعود إلى ميراثها الساميّ فحسب، بل تُردّ أيضاً إلى طبيعتها المنفردة في تطوير ذلك الميراث. ولا ريب أنّ لكلّ من أخوات العربيّة خصائص تميّزها هي أيضاً، إلا أنّها في الأعمّ الأغلب لا تداني العربيّة في التنوع والاتّساع والتّقييس والابتكار، وبخاصّة في الظواهر الستّ التي أوردناها. وبعيداً عن الانحياز إلى العربيّة - وإن كُنّا نقرّ بصعوبة هذا المطّلب - نرى أنّ اللبنة الأولى للتّظنر في العلاقة بين اللّغة والهويّة إنّما هي التّحديد الدقيق للمراد بالعربيّة، ممّا لأوهام تتعلّق باهيّة المصطلح، وتثبيتاً لموقع العربيّة التصنيفيّ في مجموعتها وموقعها التاريخيّ في التطوّر اللغويّ للأصول التي انبثقت منها.

المراجع

باللغة العربيّة:

١. الأنصاري، عبد الرحمن الطيّب. "قرية" الفاو: صورة للحضارة العربيّة قبل الإسلام في المملكة العربيّة السعوديّة (الرياض: جامعة الرياض، ١٩٨٢).
٢. الأنصاري، أبو زيد. التّوادر، تحقيق محمد عبد القادر أحمد (بيروت: دار الشروق، ١٩٨١).
٣. الإشبيلي، ابن عصفور. الممتع في التّصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، ط ٤ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩).
٤. ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص، تحقيق محمد علي التّجار (القاهرة: دار الكتب المصريّة، ١٩٥٢-١٩٥٦).
٥. ابن جني، أبو الفتح عثمان. سرّ صناعة الإعراب، تحقيق حسن هندراوي (دمشق: دار القلم، ١٩٨٥).
٦. ابن يعيش، أبو البقاء. شرح المفصّل (القاهرة: المطبعة المنيريّة، د.ت).
٧. ابن منظور، جمال الدين. لسان العرب (مصر: بولاق، ١٣٠٠-١٣٠٧).
٨. بعلبكي، رمزي منير. "التأثيل المعجميّ وموقع العربيّة بين الساميات"، مجلّة المعجميّة، العدد ٢٣، ٢٠٠٣، ص ١٩-٤٠.
٩. بعلبكي، رمزي منير. فقه العربيّة المقارن: دراسات في أصوات العربيّة وصرّفها ونحوها على ضوء اللّغات الساميّة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٩).
١٠. بعلبكي، رمزي منير. الكتابة العربيّة والساميّة: دراسات في تاريخ الكتابة وأصولها عند الساميين (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١).
١١. بعلبكي، رمزي منير. معجم المصطلحات اللغويّة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠).
١٢. بعلبكي، رمزي منير. "مفردات (العربيّة القديمة) في المعجم التاريخيّ للغة العربيّة"، مجلّة المعجميّة (قيد الطبع).
١٣. البغدادي، عبد القادر بن عمر. خزنة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، تحقيق عبد السّلام هارون (القاهرة: دار الكتاب وناشرون آخرون، ١٩٦٧-١٩٨٦).
١٤. الزجاجي، أبو القاسم. الأمالي، تحقيق عبد السلام هارون، ط ١ (القاهرة: المؤسّسة العربيّة الحديثة، ١٣٨٢هـ/١٩٨٨).
١٥. السيوطي، جلال الدين. همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربيّة (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٧هـ).

باللغات الأجنبية:

16. Beeston, Alfred F.L. "Nemara and Faw", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, No. 42 (1979), pp. 1-6.
17. Beeston, Alfred F.L. "Languages of Pre-Islamic Arabia", *Arabica*, No. 42 (1981), pp. 178-186.
18. Belova, Anna Gr. "South Semitic Languages", In: *Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics*, Ed. by Kees Versteegh (Leiden: E.J. Brill, 2009). Vol. IV, pp. 300-315.
19. Bergsträsser, Gotthelf. *Introduction to the Semitic Languages*, tr. Peter T. Daniels (Eisenbraun: Winona Lake Ind., 1923; repr. 1983).
20. Blau, Joshua. "Hebrew and North West Semitic: Reflections on the Classification of the Semitic Languages", *Hebrew Annual Review*, No. 2 (1978), pp. 21-44.
21. Brockelmann, Carl. *Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen* (Hildesheim: Georg Olms, 1926; repr. 1961).
22. Diem, Werner. "Die Genealogische Stellung des Arabischen in den Semitischen Sprachen: Ein ungelöstes Problem der Semitistik". *Studien aus Arabistik und Semitistik: Anton Spitaler zum Siebzigsten Geburtstag*, (ed.) Werner Diem, 65-85. Wiesbaden: O. Harrassowitz, 1980.
23. Faber, Alice. "Genetic Subgroupings of the Semitic Languages", Ph.D. diss., University of Texas at Austin, 1980.
24. Fleisch, Henri. *Traité de Philologie Arabe*, 2nd ed., 2 vols. (Beirut: Imprimerie Catholique, 1990).
25. Goldenberg, Gideon. "The Semitic Languages of Ethiopia and their Classification", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, No. 40 (1977), pp. 461-507.
26. Graf, David, and Michael J. Zwettler. "The North Arabian 'Thamudic E' Inscription from Uraynibah West", *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, No. 335 (2004), pp. 53-89.
27. Gray, Louis Herbert. *Introduction to Semitic Comparative Linguistics* (Amsterdam: Philo Press, 1934; repr. 1971).
28. Healey, John F. & G. Rex Smith. "Jausen-Savignac 17: The Earliest Dated Arabic Document (A.D. 267)", *Atlat: The Journal of Saudi Arabian Archaeology*, No. 12 (1989), pp. 77-84.
29. Hetzron, Robert. "La Division des Langues Sémitiques", In : André Caquot (ed.), *Actes du Premier Congrès International de Linguistique Sémitique et Chamito-Sémitique* (The Hague : Mouton, 1974), pp. 181-194.
30. Hetzron, Robert. "Two Principles of Genetic Reconstruction", *Lingua*, No. 38, pp. 89-108.
31. Huehnergard, John. "Languages of the Ancient Near East", *The Anchor Bible Diction-*

- ary, New York, Vol. IV (1992), pp. 155-70.
32. Jaussen, Antonin and Raphaël Savignac. *Mission archéologique en Arabie*, 5 vols. (Paris: Ernest Leroux and Paul Geuthner, 1909-1922). (Repr., Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1997).
 33. Lipiński, Edward. *Semitic languages: Outline of a Comparative Grammar* (Leuven: Peeters, 2001).
 34. Macdonald, Michael C.A. "Some Reflections on Epigraphy and Ethnicity in the Roman Near East", In: *Identities in the Eastern Mediterranean in Antiquity, Proceedings of a Conference held at the Humanities Research Center in Canberra, 10-12 November 1997, Mediterranean Archaeology*, No.11 (1998), pp. 177-190.
 35. Macdonald, Michael C.A. "Reflections on the Linguistic Map of Pre-Islamic Arabia", *Arabian Archaeology and Epigraphy*, No.11 (2000), pp. 28-79.
 36. Macdonald, Michael C.A. "Old Arabic (Epigraphic).", In: *Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics*, Ed. by Kees Versteegh (Leiden: E. J. Brill, 2008), Vol. III, pp. 464-475.
 37. Mendenhall, George E. "Arabic in Semitic Linguistic History", *Journal of the American Oriental Society*, No. 126 (2006), pp. 17-26.
 38. Militarev, Alexander and Leonid Kogan. *Semitic Etymological Dictionary*, 2 vols. (Münster: Münster-Verlag, 2000-2005).
 39. Moscati, Sabatino, Anton Spitaler, Edward Ullendorff, and Wolfram von Soden. *An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages: Phonology and Morphology*, 2nd ed. (Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1969).
 40. Ratcliffe, Robert R. "Defining Morphological Isoglosses: The 'Broken' Plural and Semitic Sub Classification", *Journal of Near Eastern Studies*, No. 57 (1998), pp. 81-123.
 41. Retsö, Jan. "Das Arabische der Vorislamischen Zeit bei Klassischen und Orientalischen Autoren: Neue Beiträge zur Semitistik," Erstes Arbeitstreffen der Arbeitsgemeinschaft Semitistik in der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft vom 11. bis zum 13. September 2000 and der Friedrich-Schiller-Universität Jena, (ed.) Norbert Nebes, (Wiesbaden: O. Harrassowitz, 2002), pp.139-146.
 42. Retsö, Jan. *The Arabs in Antiquity: Their history from the Assyrians to the Umayyads* (London: Routledge Curzon, 2003).
 43. Retsö, Jan. "Arab", In: *Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics*, Ed. by Kees Versteegh (Leiden: E.J. Brill, 2006), Vol. I, pp. 126-133.
 44. Robin, Christian J. "Les Inscriptions de l'Arabie Antique et les Etudes Arabes", *Arabica*, No.48 (2001), pp. 509-577.
 45. Rodgers, Jonathan. "The Subgrouping of the South Semitic Languages", In: A.S. Kaye (ed.), *Semitic Studies in Honor of Wolf Leslau*, Vol. 2 (Wiesbaden: Harrassowitz, 1991), pp. 1323-1336.
 46. Versteegh, Kees. *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press,

- 1997).
47. Voigt, Rainer M. "The Classification of Central Semitic", *Journal of Semitic Studies*, No. 32 (1987), pp. 1-21.
 48. Wright, William. *Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages* (Amsterdam: Philo Press, 1890; repr. 1966).
 49. Zaborski, Andrzej. "The Position of Arabic within the Semitic Dialect Continuum", In: Kinga Dévényi and T. Iványi (Ed.), *Proceedings of the Colloquium on Arabic Grammar* (Budapest: Eötvös Loránd University, 1991) (Budapest: Eötvös Loránd University, 1991), pp. 365-375.
 50. Zaborski, Andrzej. " Problèmes de Classification des Dialectes Sémitiques Méridionaux ", In : Dominique Caubet (ed.), *Actes des Premières Journées Internationales de Dialectologie Arabe de Paris* (Paris : Publications Langues'O, 1994), pp. 400-411.